المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العـــدد 21 آيار 2026
No.21 May 2026

أثر السياق اللغوي في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم: دراسة في التماسك الدلالي

م.م .حسن رضا عبد زغير
م.م .ضرغام سعيد منعم
المديرية العامة لتربية بابل

يُعد المتشابه اللفظي في القرآن الكريم أحد أدق مظاهر الإعجاز البياني إذ يثير تساؤلات جوهرية حول حكمة العدول بين الألفاظ في السياقات المتكررة. يسعى هذا البحث إلى استجلاء دور "السياق اللغوي" بوصفه الموجه الرئيس لهذه الظاهرة؛ حيث يعمل كأداة ضبط دلالية تمنح كل مفردة خصوصيتها في موضعها. تتمحور مشكلة الدراسة في بيان العلة البيانية للتباين اللفظي في الآيات المتشابهة رغم اتحاد معناها العام، وكيف يسهم هذا التباين في تعزيز التماسك الدلالي للنص. اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، مستنداً إلى أمهات كتب التفسير البياني وعلوم المتشابه، مع الإفادة من المفاهيم اللسانية الحديثة حول "نظرية السياق". أثبتت الدراسة أن التغيير اللفظي ليس تكراراً محضاً بل هو "إبداع نظمي" محكوم بضرورات سياقية (مقامية وسياقية) تخدم مقصد السورة العام. كما خلص البحث إلى أن التماسك النصي في القرآن الكريم ينبع من المزاوجة الدقيقة بين اختيار اللفظة وتناسبها مع ما قبلها وما بعدها، مما يبرهن على أن كل اختلاف في الصيغة أو التركيب هو إضافة دلالية لا تستقيم الآية بدونها. وتخلص النتائج إلى تعميق فهمنا لهندسة النظم القرآني وتفنيد الشبهات حول التكرار من خلال إبراز "العلة السياقية" لكل فرادة لفظية .

كلمات مفتاحية : أثر السياق اللغوي في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم

The Impact of Linguistic Context on Interpreting Verbal Similarities in the Holy Quran: A Study in Semantic Cohesion

A.L. Hassan Reda Abdul Zaghir
A.L. Dirgham Saeed Munim
General Directorate of Education in Babylon

Abstract
"Verbal Similarity" in the Holy Quran is a sophisticated linguistic phenomenon where verses are repeated with slight changes in wording. This research investigates the role of "Linguistic Context" in directing these variations. It treats context as a precise semantic tool that gives every word a unique purpose in its specific place. The study addresses a central problem: Why does the Quran use different words in similar verses despite their general thematic unity? And how does this variation strengthen the text's overall cohesion? To answer these questions, the research adopts a descriptive-analytical approach. It bridges the gap between classical Quranic interpretations and modern "Context Theory" in linguistics . The findings reveal that verbal variation is not mere repetition; rather, it is a "structural innovation" driven by the specific needs of the Surah's purpose and the surrounding verses. The study concludes that the Quran's semantic cohesion is achieved through the perfect harmony between a word and its context. Each change in structure or form adds a new layer of meaning that cannot be replaced. Ultimately, this research deepens our understanding of Quranic eloquence and refutes claims of "redundant repetition" by proving that every linguistic choice is tied to a precise contextual reason.
Keywords: The impact of linguistic context on interpreting verbal similarities in the Holy Quran

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً وجعل لغته الشريفة وعاءً لسر إعجازه والصلاة والسلام على المبعوث بروح البيان سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فإنَّ المتأمل في النظم القرآني يدرك لأول وهلة أنَّه بناءٌ هندسيٌّ محكم، لا تتقدم فيه كلمة ولا تتأخر، ولا تُحذف مفردة ولا تُذكر إلا بمقدار وحكمة تليق بجلال التنزيل. ومن أبهى صور هذا الإعجاز ما اصطلح عليه العلماء بـ المتشابه اللفظي تلك الظاهرة التي تتكرر فيها المعاني والقصص والمواقف، بيد أنَّ النظم يعدل بها عن صيغة إلى أخرى، أو من سياقٍ إلى نظيره بزيادةٍ أو نقصان أو بتقديمٍ أو تأخير.

ولم يكن هذا التباين اللفظي يوماً ضرباً من التكرار المحض أو التفنن الأسلوبي المجرد، بل هو "إبداع نظمي" محكوم بـ "السياق اللغوي" الذي يعد الموجه الرئيس والميزان الدقيق لكل اختيار لغوي في القرآن الكريم. فالسياق في القرآن ليس مجرد وعاء للمفردات، بل هو قوة فاعلة تمنح اللفظة خصوصيتها الدلالية، وتجعلها في موضعها ذاك لا يسد مسدها غيرها، محققةً بذلك أعلى درجات التماسك النصي والدلالي.

أهمية البحث

تتجلى أهمية هذه الدراسة في كونها تسعى لإبراز وجه من أدق وجوه الإعجاز البياني وهو إعجاز "النظم المتشابه" الذي يعجز البشر عن محاكاة دقته واتساقه. وتكتسب الدراسة صبغتها العلمية من خلال الربط المنهجي بين علوم القرآن التراثية واللسانيات الحديثة مما يسهم في إثراء المكتبة الأكاديمية ببحث يجمع بين "جزئيات اللغة" و"كليات المقاصد". كما تبرز أهميتها في دورها الدفاعي لتفنيد الشبهات التي توهم بوجود تكرار فاقد للقيمة، وكشف "الهندسة السياقية" التي تجعل من كل لفظة وحدة دلالية لا غنى عنها.

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها:

- تأصيل دور السياق: الكشف عن المركزية التي يحتلها السياق في توجيه الاختيارات اللغوية داخل الآيات المتشابهة.
- تحليل البنية الصرفية والتركيبية: بيان العلل البيانية وراء العدول الصرفي والتباين التركيبي في مواضع التشابه.
- إثبات التماسك الدلالي: إبراز كيف يتحول التغاير اللفظي في الظاهر إلى تماسك دلالي يربط الآية بمقصد السورة الكلي.
- تجديد الرؤية التراثية: استثمار آليات "نظرية السياق" المعاصرة في قراءة المنجز البلاغي القديم لإثبات ريادته وعالميته.

مشكلة البحث ومنهجيته

تتمحور مشكلة الدراسة في بيان العلة البيانية للتباين اللفظي في الآيات المتشابهة رغم اتحاد معناها العام، وكيف يسهم هذا التباين في تعزيز التماسك الدلالي للنص. وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي مستنداً إلى أمهات كتب التفسير البياني وعلوم المتشابه مع الإفادة من المفاهيم اللسانية الحديثة حول "نظرية السياق".

خطة البحث

لقد جاء هذا البحث موزَّعاً ملخص ومقدمة على ثلاثة مباحث رئيسة وخاتمة وقائمة المصادر:

المبحث الأول: رصدنا فيه أثر السياق في بنية المفردة (المستوى الصرفي).

المبحث الثاني: انتقلنا فيه إلى المستوى التركيبي لنبحث في أثر السياق في ظواهر التقديم والتأخير والذكر والحذف.

المبحث الثالث: تناولنا فيه التماسك الدلالي في إطاره الكلي بربط المتشابه بمقاصد السور والتناسب السياقي والمقامي.

المبحث الأول: السياق وتوجيه المتشابه في بنية المفردة (المستوى الصرفي)

يُمثل السياق الإطار المرجعي الحاكم الذي تتنزل فيه الألفاظ منازلها، وهو الضابط الدلالي الذي يمنع القول بالترادف المحض في النص القرآني، لا سيما في مواضع المتشابه اللفظي. إن المتأمل في بنية المفردة القرآنية يدرك أن اختيار صيغة صرفية دون أخرى ليس مجرد تنويع أسلوبي، بل هو استجابة دقيقة لمقتضيات المقام وما يحيط باللفظة من قرائن حالية أو مقالية. فالبنية الصرفية للمفردة (كالعدول بين الماضي والمضارع، أو الإفراد والجمع، أو المبالغة واسم الفاعل) تكتسب معناها النوعي من خلال "الجو السياقي" الذي وردت فيه.

نسعى لتفكيك العلاقة الرابطة بين "بناء المفردة" و"سياقها"، من خلال استجلاء العلل الصرفية التي وجهت المتشابه اللفظي. إن هدفنا هو إثبات أن كل زيادة في المبنى أو تغيير في الصيغة في الآيات المتشابهة يحمل في طياته زيادة مطردة في المعنى تخدم الغرض الكلي للسورة. وسنقف على نماذج تطبيقية تكشف عن عبقرية النظم الذي يجعل من المفردة وحدة حية تتفاعل مع ما قبلها وما بعدها، محققة أعلى درجات التماسك الدلالي الذي يعجز البشر عن محاكاته.

المطلب الأول: أثر السياق في اختيار الصيغ الفعلية (الماضي والمضارع)

يعد الانتقال بين صيغتي الماضي والمضارع في الآيات المتشابهة من أدق المسالك التي سلكها النظم القرآني لتوجيه المعنى. فالماضي يدل على الثبوت والتحقق، بينما يوحي المضارع بالاستمرار والتجدد، والاختيار بينهما محكوم بسياق الآية ومقامها. ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، بينما جاء في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [1]. إن السياق في الأنعام يقتضي الاستمرار في الإيمان ومداومة المجيء للنبي، فجاء الفعل مضارعاً (يؤمنون) أما في الأعراف فالمقام مقام إخبار عن حدث تحقق وانتهى وهو المناداة بعد استقرار أهل الجنة في منازلهم.

ويذهب الخطيب الإسكافي إلى أن مراعاة فواصل الآيات والمناسبة السياقية تفرض هذا العدول الصرفي "[2]. فاللفظة القرآنية ليست حبيسة قوالب لغوية جامدة، بل هي طوع السياق الكلي. كما أن الفرق بين (جاء) و(أتى) في مواضع المتشابه يعكس دقة اختيار الزمن والقوة في الحدث فالمجيء غالباً ما يرتبط بالأمور العظيمة، بينما الإتيان قد يكون في الأمور اليسيرة "[3]. إن هذا التوجيه الصرفي يمنح النص مرونة دلالية تجعله قادراً على تصوير المشاهد والمواقف بدقة متناهية.

وفيما يتعلق بالتماسك الدلالي نجد أن اختيار الزمن الفعلي يرتبط أحياناً بـ "زمن السورة" الكلي؛ فالسور التي تتحدث عن القيامة وأهوالها تكثر فيها صيغ الماضي لتحقيق الوقوع، بينما السور التشريعية تميل للمضارع لبيان التجدد "[4].

نلاحظ مما تقدم أن الفعل في المتشابه القرآني لا يؤدي وظيفة زمنية مجردة فحسب، بل يعمل كأداة تصويرية تعيد رسم المشهد في ذهن المتلقي. وأجد أن السياق هو الذي "يفك شفرة" العدول الصرفي؛ فبدون ربط الفعل بسياقه اللاحقي ومقصد السورة، قد يظن المتلقي أن التغيير مجرد تنويع، بينما هو في الحقيقة توجيه دلالي دقيق يربط الحدث بغايته.

المطلب الثاني: توجيه السياق للاختلاف بين الإفراد والجمع

تتكرر في القصص القرآني مواضع متشابهة يرد فيها اللفظ مفرداً في سورة ومجموعاً في أخرى، كلفظ (الريح) و(الرياح). وبالتتبع الاستقرائي، نجد أن السياق هو الموجه؛ فلفظ (الريح) بالإفراد غالباً ما يُستخدم في سياق العذاب والشدة، بينما (الرياح) بالجمع تأتي في سياق الرحمة والتبشير بالمطر"[5]. وهذا

---

[1] ( )-
[2] ( )- الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص 112.
[3] ( )- السامرائي، فاضل، معاني النحو، ج1، ص 45.
[4] ( )- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 89.
[5] ( )- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص 210.

التوجيه يعود إلى أن ريح العذاب تأتي من جهة واحدة مهلكة، بينما رياح الرحمة تتعدد جهاتها لتلقيح الشجر وتسيير السحاب.

ويرى ابن الزبير الغرناطي أن هذا الاختلاف محكوم بـ "المناسبة الدلالية"؛ ففي سورة يونس ذكر (الريح) في معرض الحديث عن اضطراب السفن، بينما في سورة الحجر جاءت (الرياح) للتلقيح"[1]. إن الانتقال من الإفراد إلى الجمع وبالعكس ليس عفوياً، بل هو استجابة لـ "المقام النفسي" للنص. ففي مقام الامتنان والنعمة، يميل النظم إلى الجمع للإشعار بالكثرة والفيض، وفي مقام الوعيد يميل للإفراد للإشعار بالتركيز والقوة الموجهة "[2].

كما يظهر أثر السياق في جمع الصفات وإفرادها؛ فلفظ (خاشعاً) و(خاشعين) في وصف المصلين أو أهل الحشر يتحدد وفقاً لبؤرة التركيز في الآية، هل هي على "الفرد" في موقفه بين يدي الله، أم على "الجماعة" في مشهدها الكلي "[3].

أرى مما تقدم أن العدول من الإفراد إلى الجمع في المتشابه اللفظي يعكس "فلسفة العدد" في القرآن الكريم. فالسياق لا يوجه المعنى فقط، بل يوجه الشعور الإنساني تجاه اللفظة فالريح المفردة توحي بالوحدة والوحشة والقسوة، بينما الرياح توحي بالأنس والتعدد والبركة، وهذا الربط بين "البنية الصرفية" و"الأثر النفسي" هو قمة التماسك الدلالي .

المطلب الثالث: أثر السياق في العدول بين صيغ المبالغة واسم الفاعل

تظهر دقة المتشابه اللفظي في العدول بين صيغ الفاعل وصيغ المبالغة (فعّال، فعول، إلخ). ففي صفات الله تعالى، نجد قوله (غافر الذنب) و(غفور) و(غفار)، وهذا التباين الصرفي في الآيات المتشابهة هو محض توجيه سياقي. فاسم الفاعل (غافر) يدل على أصل الفعل ووقوعه، بينما (غفور) تدل على كثرة المغفرة من حيث النوع، و(غفار) من حيث الكم"[4]. السياق المحيط بالآية هو الذي يقرر أي الصيغ أنسب؛ فإذا كان السياق يتحدث عن ذنب عظيم، جاءت الصيغة المناسبة لهذا العظم.

ويشير الكرماني في "أسرار التكرار" إلى أن مراعاة ما قبله وما بعده (السباق واللحاق) هي التي تفرض الصيغة"[5]. ففي سورة غافر جاءت (غافر الذنب) لتناسب الفاصلة وتناسب ذكر "ذي الطول". إن التماسك الدلالي يقتضي ألا تنفصل الصفة عن موصوفها ولا عن الغرض العام للآية"[6]. وفي مواضع أخرى، نجد العدول بين (آمن) و(مؤمن)، حيث يوحي اسم الفاعل بالحدوث بينما المبالغة بالرسوخ، وهذا يخضع لمستوى الإيمان المطلوب في السياق"[7].

نلاحظ مما تقدم أن الصياغة الصرفية في القرآن ليست قوالب جاهزة يتم إسقاطها على المعاني، بل هي "هندسة معمارية" تضع اللبنة (المفردة) في المكان الذي يحقق أقصى درجات التوازن بين اللفظ والمعنى. وأجد أن إدراك هذه الفروق الصرفية في المتشابه هو السبيل الوحيد للرد على القائلين بالتكرار فكل صيغة تحمل "شحنة دلالية" لا تؤديها الأخرى في ذلك السياق تحديداً.

المبحث الثاني: أثر السياق في توجيه التباين التركيبي

إذا كانت المفردة هي اللبنة الأولى في صرح النظم القرآني، فإن "التركيب" هو الهندسة التي تربط هذه اللبنات لتشكل دلالة كلية معجزة. وفي هذا المبحث، نتجاوز حدود الصيغة الصرفية لنبحث في "الرتبة النحوية" داخل الآيات المتشابهة، مستقصين أثر السياق في ظواهر التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والعدول عن الأصل التركيبي. إن الجملة القرآنية في المتشابه اللفظي لا تخضع لمعايير النحو الوصفي

---

[1] ( )- ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، ج1، ص 154.
[2] ( )- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 241.
[3] ( )- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج5، ص 302.
[4] ( )- السيوطي، قطف الأزهار في كشف الأسرار، ص 88.
[5] ( )- الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص 132.
[6] ( )- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 215.
[7] ( )- السامرائي، فاضل، على طريق التفسير البياني، ج2، ص 40.

الجامد، بل تُصاغ وفق "نحو السياق"؛ حيث تتقدم الكلمة أو تتأخر تلبيةً لمقتضيات بؤرة التركيز أو مراعاةً لمقام الخطاب.

نتكلم عن كيف يتدخل السياق المقامي واللحاقي ليوجه التركيب النحوي بما يحقق "التماسك الدلالي مبيناً أن الحذف في موضع والذكر في موضع مشابه ليس تكراراً أو نقصاً بل هو استجابة دقيقة لغرض السورة ومقصد الآية. فالتقديم والتأخير -على سبيل المثال- يعمل كأداة "قصر وتخصيص" أو "تشريف وتعظيم" بناءً على ما يقتضيه السياق المحيط، وهو ما سنوضحه من خلال النماذج التطبيقية التي تبرز علو النظم القرآني وتفنيد الشبهات التي قد تُثار حول تباين التراكيب في القصص والمواقف المتكررة.

المطلب الأول: أثر السياق في التقديم والتأخير بين الآيات المتشابهة

يُعد التقديم والتأخير من أبرز الفنون البلاغية التي يتجلى فيها أثر السياق في توجيه المعنى. فالأصل في النحو تقديم المسند إليه أو الفعل، ولكن القرآن يعدل عن هذا الأصل في المتشابه لغايات دلالية. ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، بينما قدم "العدل" على "الشفاعة" في موضع آخر متشابه "[1]. إن التقديم هنا مرتبط بالسياق الذي نزلت فيه الآية ففي الموضع الأول كان الخطاب موجهاً لبني إسرائيل الذين كانوا يعتمدون على شفاعة آبائهم الأنبياء، فقدم "الشفاعة" لنفي ما تعلقوا به أولاً.

ويؤكد عبد القاهر الجرجاني أن التقديم والتأخير ليس لمجرد الوزن أو الفاصلة، بل هو "نظم" يتبع المعنى "[2]. فالسياق هو الذي يحدد "الأهم" الذي يستحق التقديم؛ فتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يفيد القصر والاختصاص الذي يقتضيه سياق التوحيد والثناء المطلق "[3]. إن أي تغيير في رتبة الكلمات داخل الآيات المتشابهة يعود إلى "بؤرة الاهتمام" التي يوجهها السياق نحو عنصر معين دون غيره.

و كما نلحظ أن التقديم قد يأتي مراعاةً للسياق الزمني أو الرتبي؛ فتقديم "السمع" على "البصر" في أغلب المواضع يعود إلى أهمية السمع في تلقي الوحي، ولكن قد يختلف الترتيب إذا اقتضى المقام التركيز على المشاهدة العيانية "[4].

نلاحظ مما تقدم أن التقديم والتأخير في المتشابه النحوي هو بمثابة "إشارة مرورية" يضعها السياق ليوجه انتباه القارئ إلى المعنى المركزي في الآية. وأجد أن التماسك الدلالي يبرز هنا من خلال قدرة الترتيب النحوي على محاكاة "الأولويات الدلالية" للموقف، فما قُدم في سورة أُخر في أخرى لأن "المقام" في كل منهما يطلب وجهاً مختلفاً من وجوه الحقيقة.

المطلب الثاني: توجيه السياق لظاهرتي الحذف والذكر

ظاهرة الحذف والذكر في المتشابه اللفظي تكشف عن إيجاز إعجازي يخدم التماسك النصي. فالسياق هو الذي يقرر ذكر ركن معين في آية وحذفه في آية أخرى مشابهة تماماً. ومثال ذلك حذف (ياء) المتكلم في مواضع والاحتفاظ بها في مواضع أخرى (مثل: دعانِ، دعاني). ففي مقام الاستغاثة والسرعة يميل السياق للحذف طلباً للخفة، بينما يميل للذكر في مقام التقرير والبيان"[5].

ويرى ابن الزبير الغرناطي أن الحذف في المتشابه غالباً ما يقع عندما يكون المعنى مفهوماً من السياق السابق (السباق)، مما يجعل الذكر نوعاً من الحشو الذي يتنزه عنه النظم"[6]. أما الذكر في المواضع

---

[1] ( )- السامرائي، فاضل، معاني النحو، ج4، ص 201.
[2] ( )- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 105.
[3] ( )- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 44.
[4] ( )- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 212.
[5] ( )- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 167.
[6] ( )- ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، ج2، ص88.

المشابهة فيأتي للتأكيد أو لبيان تفصيل يقتضيه المقام الجديد. ففي قصة موسى عليه السلام، يُحذف بعض الحوار في سورة ويُذكر في أخرى؛ لأن السياق في السورة الأولى يركز على "سرعة الاستجابة"، بينما في الثانية يركز على "تفاصيل المحاججة""[1].

إن التماسك الدلالي يتجلى في أن المحذوف في آية يكون "موجوداً بالقوة" من خلال قرائن السياق، مما يجعل النص مترابطاً في ذهن المتلقي دون الحاجة للتكرار اللفظي"[2].

أرى مما تقدم أن الحذف في المتشابه ليس نقصاً، بل هو إفصاح بالصمت فالسياق يمنح الكلمة المحذوفة حضوراً ذهنياً أقوى مما لو ذُكرت. وأجد أن قدرة السياق على توجيه الحذف والذكر هي التي تمنح القصص القرآني المتكرر طابعاً متجدداً في كل سورة، بحيث تشعر أن كل آية كافية بذاتها في موضعها، ومكملة لغيرها في موضع آخر.

المطلب الثالث: أثر السياق في العدول عن الترتيب الأصلي للجملة

يحدث العدول النحوي في المتشابه اللفظي حين تخرج الجملة عن مسارها المعتاد لتؤدي غرضاً سياقياً خاصاً. ومن ذلك العدول من الجملة الفعلية إلى الاسمية (أو العكس) في آيات متشابهة. فالجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار، بينما الفعلية تفيد الحدوث والتجدد "[3]. ففي وصف المؤمنين في سورتي المؤمنون والمعارج، نجد تبايناً طفيفاً في التراكيب يعود إلى السياق العام للسورة وما يحيط بالآيات من صفات أخرى "[4].

كما يظهر العدول في استخدام أدوات التوكيد؛ فقد تُؤكد آية بـ (إنّ) و (اللام) وتخلو آية مشابهة منها. وهذا التباين محكوم بـ "حالة المخاطب" (السياق المقامي)؛ فإذا كان المخاطب منكراً اشتد التوكيد، وإذا كان مقراً خُفف "[5]. إن السياق هنا يعمل كميزان دقيق يزن جرعة التوكيد المطلوبة لتحقيق الإقناع والتماسك الدلالي.

ويشير الخطيب الإسكافي إلى أن التناسب بين بداية الآية وخاتمتها (الفاصلة) قد يفرض عدولاً في الترتيب النحوي لضمان الوحدة العضوية للنصط[6].

و نلاحظ مما تقدم أن النحو في المتشابه القرآني ليس مجرد قواعد لتركيب الجمل، بل هو "فعل دلالي" يوجهه السياق. وأجد أن العدول عن الترتيب الأصلي للجملة هو الذي يكسر رتابة التكرار ويخلق حالة من اليقظة الذهنية لدى القارئ، مما يؤدي في النهاية إلى تعميق التماسك الدلالي للخطاب القرآني ككل.

المبحث الثالث: السياق والتماسك الدلالي (دراسة في المقاصد والنظم الكلي)

ينتقل البحث في هذا المبحث من رصد الظواهر اللسانية الجزئية إلى فضاء "النصية الكلية حيث نناقش كيف يخدم المتشابه اللفظي المقاصد الكبرى للسور القرآنية. إن التماسك الدلالي ليس مجرد ترابط بين جملتين بل هو شبكة معقدة من العلاقات التي تجعل من السورة الواحدة وحدة عضوية لا تتجزأ. وفي هذا الإطار، يبرز السياق بوصفه "الموجه الأعلى"؛ فهو الذي يربط الاختيار اللفظي في الآية المتشابهة بالمناخ العام للسورة، وبطبيعة المخاطبين، وبأسباب النزول.

سنعمل هنا على إثبات أن "التغاير" في المتشابه هو في الحقيقة "تكامل" دلالي؛ فما يبدو اختلافاً في اللفظ هو ضرورة يفرضها "النظم الكلي". سنتناول أثر مقصد السورة في توجيه المفردة، وكيف يتشكل التماسك

---

[1] ( )- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص 140.
[2] ( )- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 290.
[3] ( )- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص 310.
[4] ( )- الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص 198.
[5] ( )- السامرائي، فاضل، لمسات بيانية، ص 56.
[6] ( )- الإسكافي، درة التنزيل، ص 245.

من خلال المزاوجة بين "السباق" و"اللحاق"، وصولاً إلى فهم المتشابه كأداة لتحقيق الوحدة الموضوعية. إن هذا المبحث يمثل ثمرة الدراسة، حيث تذوب فيه القواعد النحوية والصرفية في بوتقة المعنى المقاصدي، لتكشف عن وجه جديد من وجوه الإعجاز الذي يربط اللفظة بكيان النص الشامل.

المطلب الأول: أثر مقصد السورة في توجيه اختيار الألفاظ المتشابهة

إن لكل سورة في القرآن الكريم "شخصية دلالية" مستقلة ومقصداً محورياً تدور حوله آياتها وهذا المقصد هو الذي يمارس سلطته على اختيار الألفاظ في مواضع المتشابه. فعندما تتكرر قصة أو حكم في سورتين مختلفتين، نجد أن السياق في كل سورة يجذب اللفظة التي تناسب غرضها الكلي. ومثال ذلك قصة خلق آدم عليه السلام؛ ففي سورة (ص) التي سياقها العزة والاستكبار (استكبار إبليس)، نجد تأكيداً على "نفخ الروح" و"السجود" لبيان علو شأن المخلوق الذي استكبر عنه إبليس، بينما في سورة (الحجر) يميل السياق لبيان مادة الخلق (صلصال، حمأ مسنون) لتناسب جو السورة العام في بيان بدائع الخلق وقدرة الخالق"[1].

ويذهب البقاعي في "نظم الدرر" إلى أن التناسب بين الآية ومقصد السورة هو سر الإعجاز؛ فاللفظة المتشابهة في سورة البقرة (التي تعنى بالأحكام والاستخلاف) تختلف في توجيهها عن نظيرتها في سورة الأنعام (التي تعنى بالعقيدة والتوحيد) "[2]. إن هذا "التوجيه المقاصدي" يجعل المتشابه اللفظي يبدو كأنه صِيغَ خصيصاً ليلائم "العمود الفقري" للسورة التي ورد فيها. فالتماسك الدلالي هنا يتحقق من خلال انصهار الجزء في الكل؛ فالآية لا تعمل بمعزل عن الغرض الكلي للسورة، بل هي ترسل إشارات دلالية تقوي المعنى العام وتؤكده.

وعلاوة على ذلك، نجد أن "جو السورة" (سواء كان مكياً يتسم بالشدة والقرع، أو مدنياً يتسم بالبسط والتشريع) يفرض ظلاله على البنية اللفظية للمتشابه. فالعدول من لفظ إلى آخر في مواضع التشابه ليس تحسيناً لفظياً، بل هو استجابة لـ "المغناطيس الدلالي" الذي يمثله مقصد السورة الشامل"[3]. وبناءً عليه، يمكن القول إن المتشابه اللفظي هو أداة "ربط مقاصدي" تربط القصص والأحكام بالغاية الكبرى من إنزال السورة"[4].

أرى مما تقدم أن مقصد السورة يعمل كـ "بوصلة دلالية" توجه الألفاظ في مواضع المتشابه. وأجد أن الباحث الذي يدرس المتشابه بمعزل عن مقصد السورة قد يدرك الفروق اللغوية، لكنه سيغفل عن "العلة الغائية" التي من أجلها وُجد هذا التباين. نلاحظ أن هذا الربط المقاصدي هو الذي يمنح القرآن وحدته الموضوعية رغم تنوع موضوعاته وتكرار قصصه.

المطلب الثاني: التماسك الدلالي من خلال التناسب بين الآية وما قبلها وما بعدها

لا تكتسب الآية المتشابهة معناها الكامل إلا من خلال "المجاورات اللفظية"، أي ما يسبقها من آيات (السباق) وما يلحق بها (اللحاق). هذا التناسب السياقي هو الضمانة الكبرى للتماسك الدلالي. ففي مواضع التشابه، نجد أن اختيار لفظة معينة دون غيرها يكون استجابة لقرينة ذكرت في الآية السابقة أو تمهيداً لمعنى سيأتي في الآية اللاحقة. ومثال ذلك في سورة المائدة، حيث ختمت آية متشابهة بقوله (عزيز حكيم) بينما ختمت نظيرتها في سورة أخرى بـ (غفور رحيم)؛ وذلك لأن سياق المائدة كان في إقامة الحدود والعدل، بينما كان السياق الآخر في مقام المغفرة والامتنان"[5]. ويشير الطاهر بن عاشور إلى أن

---

[1] ( )- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج4، ص 2100.
[2] ( )- البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج1، ص 15.
[3] ( )- دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، ص 154.
[4] ( )- شلبي، سعد، أصول البيان العربي في ضوء القرآن، ص 230.
[5] ( )- الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج11، ص 180.

"الاتصال النظمي" هو الذي يوجه التباين في المتشابه؛ فالآية لا تُقرأ وحدها بل كجزء من سلسلة دلالية متصلة"[1]. إن هذا النوع من التماسك يُعرف في اللسانيات الحديثة بـ "السبك والالتحام"، حيث تعمل الروابط اللفظية والمعنوية على شد أجزاء النص بعضها إلى بعض. وفي المتشابه القرآني، نجد أن تغيير حرف واحد أو تقديم كلمة يغير مسار الربط ليتلاءم مع "السياق المحلي" للآية دون الإخلال بالتماسك الكلي"[2].

إن إدراك هذا التناسب يتطلب نظرة شمولية للنص، تتجاوز حدود الجملة الواحدة إلى "الفضاء النصي" المحيط بها. فالمتشابه اللفظي ليس جُزراً منعزلة، بل هو نقاط ارتكاز في نسيج محكم حيث يتم توجيه كل زيادة أو نقصان لفظي لخدمة الوحدة العضوية للخطاب "[3]. وبذلك يصبح المتشابه دليلاً على أن النص القرآني بناء واحد، يشهد آخره لأوله، ويوجه سياقه دلالات ألفاظه.

أجد مما تقدم أن التناسب بين الآية وبيئتها اللفظية (السباق واللحاق) يمثل "الروح الحركية" للنص القرآني. نلاحظ أن السياق اللفظي المباشر يعمل كمغناطيس يجذب اللفظة المتشابهة لتتلاءم مع جاراتها، وهذا ما نطلق عليه "الانسجام النظمي". أرى أن التماسك الدلالي هنا يصل إلى ذروته حين نشعر أن أي تغيير في هذه اللفظة سيؤدي إلى خلل في السلسلة الدلالية المحيطة بها .

المطلب الثالث: أثر السياق المقامي (أسباب النزول والمخاطب) في توجيه التباين اللفظي

يخرج السياق في هذا المطلب من حدود "النص" إلى حدود "الواقع"، حيث نناقش أثر "المقام" أو السياق الخارجي في توجيه المتشابه. إن اختلاف حال المخاطبين (مؤمنين، كفار، منافقين) واختلاف مقتضيات النزول (حرب، سلم، رخاء، شدة) يترك أثراً عميقاً في صياغة الآيات المتشابهة. فالمقام يقتضي الإطناب أحياناً والإيجاز أحياناً أخرى، ويقتضي الشدة في اللفظ في موضع واللين في موضع مشابه"[4]. ففي خطاب المشركين المعاندين، نجد أن المتشابه اللفظي يميل إلى قوة القرع واستخدام صيغ الوعيد، بينما في مقام تثبيت المؤمنين يميل إلى التلطف والوعد. ويؤكد السكاكي في "مفتاح العلوم" أن مقتضى الحال هو الموجه الأول لكل اختيار لغوي"[5]. فالمتشابه اللفظي في قصص الأنبياء يختلف توجيهه باختلاف "مقام الدعوة"؛ فموسى عليه السلام في خطابه لفرعون يستخدم ألفاظاً تختلف عن خطابه لقومه، رغم تشابه الموقف في ظاهره. إن التماسك الدلالي هنا يربط بين "النص" و"الواقع"؛ مما يجعل القرآن نصاً حياً يتفاعل مع الظروف الزمانية والمكانية التي نزل فيها "[6].

كذلك، يلعب "أسباب النزول" دوراً حاسماً في فك إشكالات المتشابه؛ فالآية التي نزلت في حادثة معينة تكتسب دلالتها من تلك الحادثة، وهذا يفسر سر العدول اللفظي عن آية مشابهة نزلت في مقام آخر"[7]. إن هذا "التوجيه المقامي" يثبت أن القرآن ليس نصاً نظرياً مجرداً بل هو خطاب موجه، يراعي نفسية السامع وظروف المواجهة، محققاً بذلك أعلى مستويات التأثير والإقناع.

نلاحظ مما تقدم أن السياق المقامي هو الذي يمنح المتشابه "بُعده الإنساني والحركي". أرى أن التباين اللفظي في المتشابه هو استجابة لـ "نبض الواقع"؛ فالقرآن يخاطب النفوس البشرية في تقلباتها المختلفة، ولذا كان لزاماً أن تتغير الألفاظ بتغير المقامات. أجد أن التماسك الدلالي يكتمل حين نربط النص ببيئته، فندرك أن كل كلمة وُضعت لتناسب "لحظة تاريخية" و"حالة نفسية" محددة.

---

[1] ( )- ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، ج1، ص 75.
[2] ( )- عشماوي، محمد، فكرة النظم بين المعتزلة والأشاعرة، ص 112.
[3] ( )- فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 205.
[4] ( )- الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، ص 45.
[5] ( )- السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص 162.
[6] ( )- العكوب، خالد، نظرية السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، ص 190.
[7] ( )- أبو موسى، محمد محمد، التصوير البياني، ص 315.

الخاتمة

خلص البحث إلى جملة من النتائج الجوهرية التي نجملها في النقاط الآتية:

- محورية السياق: أثبتت الدراسة أن السياق (بمستوياته الصرفية والنحوية والمقامية) هو "القانون الحاكم" الذي يوجه اختيار الألفاظ في المتشابه اللفظي؛ فليس في القرآن تكرار محض بل هو تنوع تمليه مقتضيات المعنى.
- التوجيه الصرفي: كشف البحث أن العدول في بنية المفردة (من ماضٍ إلى مضارع، أو من إفراد إلى جمع) في الآيات المتشابهة هو استجابة دقيقة لـ "الجو النفسي" والدلالي للآية، مما يعزز الوظيفة التصويرية للنص.
- النظم التركيبي: تبيّن أن التقديم والتأخير والذكر والحذف في المتشابه النحوي يتبع "بؤرة الاهتمام" في السياق، حيث يتم إعادة ترتيب عناصر الجملة لتسليط الضوء على المعنى الأهم في كل موضع.
- التماسك المقاصدي: خلصت الدراسة إلى أن التماسك الدلالي للنص القرآني يتحقق من خلال ربط الآية المتشابهة بمقصد السورة الكلي، وبسياقها اللفظي (السباق واللحاق)، مما يجعل النص وحدة عضوية متلاحمة.
- تفنيد الشبهات: إن إدراك "العلة السياقية" في المتشابه هو السبيل الأمثل للرد على الشبهات التي تدعي وجود تكرار زائد في القرآن؛ إذ تبيّن أن كل زيادة أو نقص لفظي هو إضافة معنوية لا يستقيم السياق بدونها.

قائمة المصادر والمراجع

- البقاعي، برهان الدين، إبراهيم بن عمر (ت 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (د.ط)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، 1984م.
- تمام حسان (دكتور): اللغة العربية: معناها ومبناها، ط5، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2006م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ): أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط1، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني بجدة، السعودية، 1991م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1992م.
- دراز، محمد عبد الله (دكتور): النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ط9، دار القلم، الكويت، مطابع دار القلم، 1970م.
- الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر (ت 606هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ.
- الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله (ت 794هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، 1957م.
- ابن الزبير الغرناطي، أحمد بن إبراهيم (ت 708هـ): ملاك التأويل الجليل في توجيه المتشابه من آي التنزيل، تحقيق: سعيد الفلاح، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2003م.
- الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر (ت 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407هـ.
- السامرائي، فاضل صالح (دكتور): على طريق التفسير البياني، ط1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، 2003م.
- السامرائي، فاضل صالح (دكتور): لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ط3، دار عمار، عمان، الأردن، 2003م.
- السامرائي، فاضل صالح (دكتور): معاني النحو، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000م.

- السكاكي، يوسف بن أبي بكر (ت 626هـ): مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.
- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (د.ط)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، 1426هـ.
- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): قطف الأزهار في كشف الأسرار، تحقيق: أحمد عبد الستار، (د.ط)، دار المنار، القاهرة، مصر، 1993م.
- شلبي، سعد (دكتور): أصول البيان العربي في ضوء القرآن، (د.ط)، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1985م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت 1393هـ): تفسير التحرير والتنوير، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله (ت 395هـ): الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (د.ط)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1997م.
- عشماوي، محمد (دكتور): فكرة النظم بين المعتزلة والأشاعرة، (د.ط)، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 1997م.
- العكوب، خالد (دكتور): نظرية السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، ط1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998م.
- فضل، صلاح (دكتور): بلاغة الخطاب وعلم النص، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة (164)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992م.
- قطب، سيد (ت 1386هـ): في ظلال القرآن، ط32، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2003م.
- الكرماني، برهان الدين، محمود بن حمزة (ت نحو 505هـ): أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (د.ط)، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، 1977م.
- الواحدي، علي بن أحمد (ت 468هـ): أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام الشايع، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.